*تأسيس نظرية النظم، والأساس الذي بُني عليه علم البلاغة*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ منة الله مجدى محمد

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*menna.magdy@mediu.ws*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في تأسيس نظرية النظم، والأساس الذي بُني عليه علم البلاغة**

**الكلمات المفتاحية : النظر ، الأساس ، النحو والشعر**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن تأسيس نظرية النظم، والأساس الذي بُني عليه علم البلاغة**

1. **عنوان المقال**

**قال عبد القاهر: انتهى الفصل الذي أردت أن أكتبه، فقد بصرك هذا أن لن يكون إيقاع نفي الوجود على صريح لفظ المثل كإيقاعه على ضميره، تأمل أين وقعت الفكرة، وما المراد بها، وكيف خمرت عقل عبد القاهر وإلى أين نقلها، والمعنى الذي استخرجه منها، وهي ليست من كلام الجاحظ، وإنما من كلام أبي يعقوب الخريمي؟ وقلنا: أن الجاحظ قد جمع كلام حذاق البيان في شأن البلاغة، وقد نقل عبد القاهر كلام أبي يعقوب إلى معاني النحو في باب التنازع، ومثل هذا الأسلوب راجح عند الكوفيين؛ لأنهم يُعملون الثاني لقربه، مرجوح عند البصريين؛ لأنهم يُعملون الأول لتقدمه، ولكن الشاعر اختار إعمال الثاني للسر الذي ذكره عبد القاهر.**

**وانظر إلى كلام أبي يعقوب الخريمي في إشباع المعاني، وأنه لا عيب في أن يقول: أنهى عن التقاطع بعد قوله: آمر بالتواصل؛ لأن كشف المعاني والدلالة عليها بصريح اللفظ ليس كالدلالة عليها بطريق التضمين والالتزام؛ لأن الأمر بالتواصل يتضمن النهي عن التقاطع، وهذا قيس بن خارجة يريد العناية بمعنى النهي عن التقاطع، فلم يتركه؛ لدلاله التضمن، ولعل سياق الحديث وشأن الحمالات، والديات، والصلح، وهو تواصل وتبشيع الحرب، وهو تقاطع مما جعل قيسًا يُؤثر ذلك، والمهم أن عبد القاهر استلهم من هذا فكرة إعمال الفعل الذي هو رأس المعنى في صريح اللفظ، وأنه من أجل أن يكون هذا ممكنًا؛ وجب إهمال الفعل الأول الذي هو مقدمة ووطاء، وهكذا كان المزج الذي جمع عبد القاهر من خلاله كلام النحاة في معاني النحو، وكلام البلغاء وحذاق الشعر والبيان في أوصاف البلاغة، وأذاب هذا بذلك، وصنع منهما علمًا شريفًا هو الذي تلاقت فيه رقائق المعاني النحوية بتوقيعات الأوصاف الرمزية، فلم يكن النحو، ولم يكن الرمز؛ وإنما علم آخر تلاقت فيه وضاءة النحو بإيماض الرمز.**

**ولنرجع إلى مجموعة الروابط والعلاقات التي كان يسميها القدماء النحت والسبك والصوغ، والمزج، والتأليف، والطابع التي سماها عبد القاهر النظم، وسلك أسرارها ودقائقها في أبواب التقديم والحذف، وفروق الخبر، والوصل والفصل إلى آخره، والتي سماها المتأخرون علم المعاني، هذه المنظومة من العلاقات هي التي تستخرج من الكلمات دلالاتها، وهي التي يعمل فيها المتكلم المبين، وهي ميدان افتنانه واقتراعه واستخراجه، وهو الذي يُحدد معناها ويستخرج منها ضوءًا جديدًا، ومذاقًا جديدًا، كل ذلك بذكائه، ولقانته، وموهبته.**

**واعلم هذه الروابط المتجددة التي يهتدي إليها أصحاب الموهبة هي التي تُعيد إلى اللغة رونقها، ونضارتها، وليس كل الكلام يجري في الشعر والأدب تتجدد علاقاته ومعانيه، وإنما يكون ذلك في القليل دون الكثير، وفي الواحد من الألف، كما كان يقول عبد القاهر: لأن هذه الروابط الجديدة هي ذروة العطاء البياني، وكأنها ضرب من الإلهام، تأمل كلمات هذين البيتين لذي الرمة:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **رفع الهوادج معتمين فما ترى** | **\*** | **إلا تلألؤ كوكب في هودج** |
| **أمثال بيضاة النعام يهزها** | **\*** | **للبعد أمثال النعام الهدج** |

**أراد رحلوا بليل على إبل كالنعام العجل المسرع، وتأمل الكلمات، كلمة كوكب أجرى فيها الشاعر معنًى جديدًا لما جعل الكوكب يتلألؤ من هودج، وبيضاة النعام جرى فيها معنى جديد، لمَّا جعلها الشاعر أمثالًا لهنَّ والبيت السابق:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **ولله أنهار من الناس شقها** | **\*** | **ليشرع فيها كل مقوٍ وواجدي** |

**تجد كلمة الأنهار هنا كلمة جديدة؛ لأنها أنهار من الناس، وكلمة الناس صار فيها معنًى جديدًا؛ لأنها صارت أنهارًا، كذلك شق؛ لأن المراد الله تعالى شق الناس أنهارًا، كل هذا روابط وعلاقات؛ لأن المجاز علاقات جديدة بين الكلمات، والشاعر الكبير يُثري لغته بصوره وأساليبه كما يُثري الناس بمعانيه؛ لأن اللغة هي مدخله إلى النفوس، وإن الآثار الأدبية العظيمة لتهز اللغات كما تهز الناس والمجتمعات. وهذا هو المعمل الذي يعمل فيه منشئ النص، وفيه يكون مجهوده، وهو الذي تساءل عنه الشيخ، وهُدي إليه، ثم هو الإبانة وهو السبك والنظم.**

**وقال عبد القاهر، في أول كتاب: (أسرار البلاغة): "الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربًا خاصًّا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجهٍ من التركيب والترتيب"، وبعد ما بين أن هذا الضرب من التأليف والترتيب هو الذي به أفاد الكلام ما أفاد، وبه صار بيت شعر أو فصل خطاب، ذكر أن هذا الترتيب والتركيب إنما وقع في الألفاظ على وفق المعاني المركبة في النفس، والمنتظمة فيها على قضية العقل، يعني: أن هذا النسق اللفظي هو صورة لنسق نفسي وراءه عقل انتظمه، وأن بناء الكلام هو بناء فكر وعقل، وأن ناطقية الإنسان هي عقله وليست لسانه، وما دام هذا هو جوهر الكلام؛ فيجب أن تقرأه من الجهة التي يُقرؤ منها، وأن تتحسس فيه حركة العقل، ونسق العقل، وأن ترى به وفيه صفحة النفس التي صاغتها، ولا يجوز أبدًا أن نتعامل مع الكلام شعرًا أو بيانًا على أنه شقشقة لسان؛ لأن هذا إهدارًا لحقيقته، ولا بد من أن نتعدى اللفظ والجرس إلى ما يُناجي فيه العقل النفسَ.**

**تأمل قول أبي الطيب، كما قالوا، وهو كلام شريف:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **وذكي رائحة الرياض كلامها** | **\*** | **تبغي الثناء على الحيا فتفوح** |
| **جهد المقل فكيف باين كلمة** | **\*** | **توليه خيرًا واللسان فصيح** |

**فالرياض عند المتنبي قد مسها من عرفان الجميل مس فاستجاشها، وابتغت الثناء على الحيا فحبستها حوابس الفطرة؛ لأنه ليس لها لسان، وكأنها تجتهد في أن تخرج عن فطرتها، وأن تنشئ كلامًا ترسله أنشودة ثناء فلم تجد لذلك سبيلًا، ولا تملك إلا أن تفوح، وأن يكون فوحها هذا هو ثناؤها، تأمل الفكرة التي قامت في نفس الشاعر، كيف تناقست كلماته للدلالة عليها، وكيف تخلقت الأشياء في نفسه، وصارت مخلوقات شعرية، ذكي رائحة الرياض كلامها"، الرياض تبغي الثناء فتعجز عن الثناء الذي باللسان، ولا تهدأ؛ لأنه عار ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه ديَن من ديون المعروف، تريد أن تشق لها فمًا ولسانًا حتى لا تأكل معروف الحيا سحتًا، فلا تملك إلا أن تفوح وترسل هذا الفوح شعرًا لهذا الممدوح الكريم الذي هو الحيا، وتأمل قوله جود المقل، وهو كلام المستأنف عقب به الشاعر على هذه الصورة التي تقطر شعرًا، وكأنه جعل هذا مقدمةً وتوطئةً لما قاله، فكيف بابن كريمة توريه خيرًا واللسان فصيح.**

**يدعونا عبد القاهر إلى أن ننتقل من الألفاظ المرتبة في النطق إلى جذورها وأصولها، هو ترتيب المعاني في النفس على قضية العقل، فيكون نظرك وتحليلك وبحثك في هذه الجذور العقلية والروحية. وقد اتسعت هذه الفكرة عند عبد القاهر، ووضحها فيما سماه مدخلًا لـ:(دلائل الإعجاز)، ونشرها على أبواب النحو كلها، فكل باب من أبواب النحو تحته ضرب من ضروب العلاقات والروابط، فالفاعل وقع منه الفعل، والمفعول وقع عليه الفعل، والزمان وقع فيه الفعل، والجار والمجرور متعلق به، والحال بيان لصاحبه، والبدل هو المقصود بالحكم، والنعت بيان لوصف في المفعول، وهكذا كل النحو روابط عقلية لخص عبد القاهر هذا كله هذا تلخيصًا غريبًا، ووصفه بقول: هذا كلام وجيز يطلع فيه الناظر على أصول النحو جملةً، وكل ما به يكون النظم دفعةً، وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له، حتى رآها في مكان واحد، ويرى مُشئمًا قد ضُمَّ إلى معرف، ومغرِّبًا قد أخذ بيد مشرق.**

**يقول شيخ عبد القاهر: "هو يهدم القول بأن مزايا الكلام وبلاغه البيان راجعة إلى الألفاظ؛ ليثبت رجوع ذلك إلى النظم، وليكشف في نفس الوقت أن الشعر الجيد الذي اجتمعت له أسباب الحسن والمزية هو الذي مع النحو قامت عليه، وعلى أساسه علوم البلاغة"، يقول: "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا أو يستجيد نثرًا"، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول: "حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع؛ فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوالٍ ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده".**

**هذا النص يشير إلى أن الفهم المتعجل قد يقتبس من كلام العلماء ظاهرًا غير مراد، فيقع الدارس في سوء الفهم، وتحليل كلام أهل العلم باب من أبواب العلم؛ لأن كلام العلماء قد يخفى ولا يُستخرج إلا بالمراجعة والتأني، ولطف الاستخراج، ولم تكن أمثال هذه التنبيهات عند عبد القاهر وحده؛ بل هي شائعة عند العلماء من قبله ومن بعده، بل إنك لتراه في كلام العلماء الذين فتحوا للناس أبواب العلوم، ودلوا الناس على مَن فوقهم من العلماء الذين لهم عطاء أفاد منه هؤلاء الأعلام، وليس هذا في تراثنا وحدنا، وإنما هو كذلك عند أهل العلم من كل الأمم.**

**وعبد القاهر هنا يذكر أن وصف اللفظ بالحلاوة والأناقه والعذوبة لا يرجع شيء منه إلى الألفاظ، التي هي أصوات وأجراس حروف، وإنما ترجع هذه الأوصاف إلى ما يقع في القلب والعقل، يعني: المعاني؛ لأنها هي التي تقع في القلب والعقل، وإذا استحسنت قول الأعشي:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **كأن مشيتها من بيت جارتها** | **\*** | **مر السحابة لا ريث ولا عجل** |

**ووصفته بعذوبة اللفظ، ورشاقته، وحلاوته، فليس ذلك إلا لما تراه من صور معانيه في هذا التشبيه الذي بُني البيت عليه، وإدخاله أداة التشبيه "كأن" على مشيتها التي هي اسم هيئة، فلم يقل: كأنها، ولا: كأن مشيتها، وإنما اختص هيئة المشي وتخيَّر من أحوالها هذه الهيئة التي لها فضل تعلق بقلبه وخياله. لأنها هيئة حركة لطيفة، ثم إنه ذكر هذا القيد من بيت جارتها، فنفى عنها مشي الريبة، ونفى عنها أيضًا أن تكون مبتذلةً طوافةً في الطرقات والأسواق، ثم أومأ إلى حسن معاشرتها ومودتها، وتألفها، وذورتها لجارتها، ثم ذكر السحابة وهي ما هي ماء وخصوبة وحياء ونقاء، وطهارة، وأنها مرتفعة لم تكدرها الأرض بعد، ثم هذا الاستئناف اللطيف لا ريث ولا عجل الدال على فضل مراجعة وتأمل، وتدقيق، وكأنه يقيس حركتها قياسًا دقيقًا، ومن السحابة ما هو خفيف سريع تتوزعه الأرواح والأهواء، ومنه ما هو بطيء ثقيل، ولكن هذه السحابة التي قرن بها الصاحبة نوع آخر لا ريث فيها ولا عجل.**

**وهذه كلها معانٍ تقع من المرء في فؤاده، وليست العذوبة هنا راجعة إلى هذه الأجراس، والبيت عامر بالتوقيعات النغمية التي فيها صنج الأعشى وروحه، ولا بأس من الإيماء السريع إليه، ولنقرأ البيت قراءه عروضيه يعني: موسيقية؛ لأن كل تفعيلة كأنها جملة موسيقية، ويتوزع هكذا في "البحر البسيط":**

**كأن مش متفعل/ يتها فعلن/ من بيت جار مستفعلن/ رتها فعلن.**

**مر السحا مستفعلن/ ب تلا فعلن/ ريثن ولا مستفعلن/ عجل فعلن.**

**تأمل فعلن الأولى وفعلن الثانية تجد اشتراكًا في حرف التاء والهاء المفتوحة والألف بعدها: تها، ثم تأمل مستفعلن الثانية في الشطر الأول تجد أن نهايتها أيضًا ألف مفتوح ما قبلها، وأعِد قراءة البيت تجد هذا الاتفاق في الحروف، ونوع الحركة مما يحدث في البيت غنائية زائدة على التقسيم العروضي.**

**ثم تأمل الشطر الثاني مستفعلن الأولى منتهية بألف مفتوح ما قبلها: السحا، وفعلن منتهية بألف مفتوح ما قبلها: بتلا، ومستفعلن الثانية منتهية بمثل ما انتهت به فعل، أكثر النهايات تفعيلات التي هي معقل الرنين في الشعر منتهية بمقطع واحد: ألف مفتوح ما قبلها، وبهذه الألف يُطلق الصوت ويمتد، ولهذا ومثله وصفوا الأعشى بأنه صنَّاجة العرب، وقالوا: أن سبب هذا الوصف أنك تجد لشعره صوتًا في أذنك بعد تمامه، وهذا واضح في البيتين؛ لأنك بعدما تنطق: "مشيتها جارتها"؛ تجد كأن صويتًا بقي في أذنك، وهذا كثير بغير هذا البيت، وليس هذا مما يشفو عنه طبع الشيخ الإمام.**

**كيف وهو الحساس الدقيق الحس، وكلامه فيه إشارات إلى أهمية الجانب في بلاغة البيان من مثل قوله: إن الخطب من شأنها أن يُعتمَد فيها على الأوزان والأسجاع؛ لأنها تروى وتتناقل تناقل الأشعار، فيؤكد أن أوزان الخطب وأسجاعها كأوزان الشعر تعطف قلوب الناس نحوها، فتحفظها، وتتناقلها، يعني: أن هذه الأبنية النغمية تُسهل سبيل البيان إلى قلوب متذوقية، وعبد القاهر لم ينفِ أن يكون السجع والجناس من القيم البلاغية مع أنهما مؤسسان على الأصوات والأنغام، إنما أكد ضرورة أن تكون الأصوات والأنغام، هي أصوات وأنغام معانٍ ساقت إلى الجناس والسجع، وحينئذٍ تكون هذه القيم الصوتية مما يناجي فيها العقل النفسَ، كما قال.**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**